

## تاريخ الاستشراق الألماني

د. أحمد حسن عبد السلام

في العمق، لا يمكن الحديث عن الشرق، والكتابة عن الشرق، إلّا إنطلاقاً من شيء ما لا يبدو أنه الأرضية أو اللغة، (الشرق « الحقيقي، الجغرافي »)، ولكن من ماضي خطاب عن الشرق، من موقف، من مرجع لمرجع، من الحديث عن شيء ما لأشخاص لا يريدون معرفة أي شيء عنه، وبالنسبة لهم فإن ما تقوله هو مرجع كامل لا يمكن وضعه موضع الشك .

إن ما يتم الحديث عنه، هو الآخر، غير القابل للمعالجة، المحيّد، حتى منذ لحظة الدنو منه : لا مجال للشرق لممارسة البرهنة العلمية، حقيقة الأرضية، ووجود كائنات بشرية تملأ جغرافية ما . ولكن لفكرة قابلة للتوسيع حتى اللانهاية لأن المرجع ليس مرفوضاً، ولكنه محوّل إلى غير عملي بواسطة المناهج وما تؤول إليه، وليس الأمر هو البحث عن الجسد في النص، أو الاعتقاد بأن جزءاً يمكن له قول كل شيء هو أفضل من الاقتراب الصعب والمعقد (أو المحقّر من قبل كل شيء) .

المستشرق هو الفاعل حيث الشرق هو المفعول به المحدّد، ليس هناك من ربط أكثر عرضية من هذا الإعلاء المرن لحقيقة، في جزء منها، أو في قطعة مرئية من قبل كل الناس في حلمهم، حساسيتهم، ثقافتهم أو على الأقل من الشرف، وحيث الجزء الآخر متروك لبرهنة الجغرافية أو التاريخ؛ إنه حضور النص كدليل غير قابل للنفي .

الشرق الأوسط ينهك ذاته على تلك الأرضية المتحركة في رغبته لإثارة حرفية لما كان فعلاً، لما يعتقد بأنه كان فعلاً، ولديه الشعور بأنه قد سُرّق منه بمهارة وسرعة . أمام الفكرة التي تكاد تكون مادية للدوبان البطيء للتاريخ، تأتي الأضواء الباردة للمنهج وللتقنية، ومسألة صورة الشرق كما يرسلها إليه الاستشراق، وكما يجد حلها هو بنفسه وبهذه التقنيات نفسها والتي يعيب عليها أصولها الأجنبية .

الشرقي يكتشف ذاته كموضوع لنظرة كلية لما هو عليه، حيث لا مجال له لقول شيء ما، ليس فقط لأن لا

مجال لديه إلا أن يكون مستبعداً من الخطاب ( خطابه هي موضوعات تطبيق وليست أبداً إنتاجاً لفاعل مستقل داخل ثقافة العالم )، ولكن محللاً لهذا الخطاب، يرى بأن هذا الأخير لا يتعلّق إلا بمراجعته الخاصة به وما يعيده إليه ليس إلا خطاب الفاعل الأول؛ إذن، عندما يختفي الفاعل ليرك المكان لخطاب علمي، يفقد الواقع موطئ قدمه ولا يعود لدينا سوى اللغة ( كمرجع وحيد ).

الشك والاستفهام لا يبدوان إلا كمواطن ضعف أخلاقية، إن جزءاً كاملاً، وهو الأكبر، من الإستشراق الالمامي تحرك من رهان أساسي وأعمى ولم يعه حقاً أبداً: لا وجود للشرق، وحدها اللغة توجد، وأيضاً كان يمكن للشعوب أن تختفي منذ ألوف السنين دون أن يتغيّر شيء ما .

الاقتراب الالمامي من العالم العربي والاسلامي كان دائماً لغوياً وألسنياً، إنه شرط أول بالتأكيد ولكن البقية لم تأت أبداً، أو أتت متأخرة جداً، وهذه إحدى الركائز الأكثر تحديداً، وبعض المستشرقين الذين حاولوا كسر القلب، كانوا قد اعتبروا دائماً كهزليين متعاطفين ووبائين، أو كسائحين منزهلين قليلاً .

وقياساً إلى أن الواقع الوحيد المعترف به هو اللغة، فإن كل شيء يبدو أكثر سهولة، إن البنية الخاوية تفتح المجال لكل الاحتمالات، وكل شيء يتعلق بما يمكن حله معنًا: سحر فقه اللغة، اللغة كمركة، البحث الدقيق لكي نظرد الخوف، والجهل، والقرين اللامفهوم والمخيف .

**نوفاليس وهولدرلين** يمثلان شرقاً آخر ( شرق هذه الفكرة الالمانية ذاتها )، شرق كثير الإزعاج لكي يكون مقبولاً، أو محللاً أو موضوعاً في كرسي جامعي، أو مشروع موسوعة؛ لأنه أمام الحزن الالمامي والتقنية الالمانية، ليس الموضوع هو صحة غوته القوية، بل الجنون، والموت المبكر، والإحساس بكليّة الأشياء المدفوع إلى نهاية المطاف، والنقيض للتوازن الصحيح والقياس .

إن الالمامي يحشر أنفه في أقرب نقطة من النص، ومن هنا فإن وفاءه هو الأقل إثارة للجدل، إن مناهج البحث المعمول بها، لا حدود لها إلا تلك التي تضعها لذاتها ( نيتشه يبدو بالنسبة للألمان هامشياً جداً، وأوروبياً، إنه عالم لغة في الحقول، شاذ، هذا ما يمكن أن يعطيه الماخور في بال ) .

اللغة العربية والعالم الإسلامي، المسبورين من قبل اللغة الالمانية يطرحان أيضاً المشكلة الأكثر عمومية للعلاقة بين التقنية واللغة، وبينها وبين الحضارة . هذا ما يعنيه الانتظام والتقنية للإمساك بما يمكن له أن يكون الفوضى والبدائية العربية) ذلك أنه لا مجال للهروب بعد الكشف الدقيق الذي يؤول إليه هذا المنحى المستيري، بحيث أنه لا شيء يفوتك؛ لهذا الذي بصدهد لسنا متأكدين تماماً بأن طموح الكلية هو الفرصة الوحيدة لمحاصرة الشك؛ وفي الحدّ المقابل، فإنه عندما ترى حضارة ذاتها، فإن الآثار المادية تصبح قليلة الأهمية .

ذلك ان الاستشراق (القديم) بدلاً من أن يكون انثروبولوجية (باردة)، هو جزء من معنى مضاف إلى جزء من واقع (قبل أن يكون شكلاً وتقنيةً). وهذا ما يدركه الاستشراق الألماني قليلاً، والذي لم يضع ذاته موضع السؤال إلّا من أجل التدوين أو الفهرسة أو التأريخ.

في هذا البناء الفخم، تظهر الشقوق والتصدّعات، والبون بين المناهج، وصداع العلم من أجل إخفاء الصداق الحقيقي، وتدخل التقنية، والكشف الدقيق الذي ينتهي بترام غير عملي، والطموح الفردي للإمساك بشعب كامل، بلغاته، وثقافته وخطاباته.

إن مشروعاً بأكمله وصورة كاملة عن الشرق يبصران النور مع كل مستشرق؛ إنها تعددية مرايا ومعان موجهة ليس من الغرب إلى الغرب (المستشرقون لا يرجون إلّا إعادة إنتاج مستشرقين) ولكن من الغرب إلى الشرق، إنه الطموح برغبة التفسير له لما هو عليه، وإعطائه فكرة عن ذلك. إن تصنيع المعنى هو الشيء المستحيل، والذي لم تتم إماطة اللثام عنه أبداً.

الاستشراق، بسعيه إلى أمرين لا يمكن تلخيصهما: الإسلام والعرب، لم يصل إلى مستوى الانثروبولوجية الثقافية إلّا بواسطة متغيّرات: دراسة اللغة العربية كلغة ميتة، والعرب كشعب بائد، سلسلة من الشعوب والحضارات، كحشرات متحركة لعلم نبات قديم.

إن تاريخ الإستشراق الألماني، هو بشكل ما، رفيق ملازم لاكتشاف العرب والإسلام، وهذان هذا الإكتشاف. أمّا التقنيات لإعادة دراسة الموضوع، فهي ذات رهان مفترض ولكن حقيقي (الشعوب الحية)، متردّد، غير عارف كيف يعرف بذاته بين وضع حجاب على وجهه باللجوء إلى الماضي بكل أشكاله، وبين اللجوء إلى الجامعة.

إن قيام الإصلاح الديني، ونمو اللوثرية، سوف يحددان، بالنسبة لأوروبا الكاثوليكية، استقلال الدول الألمانية يجعلها تترك العالم الديني والثقافي للكاثوليكية؛ إن هذه الدول الألمانية سوف تنمي في تشريعها الديني الخاص، ظواهر، لإزالة الطابع الثقافي، متصلة بالتوراة، وبقراءته، وبترجمته وبتفسيره، وكرّد فعل على كل التقاليد الكاثوليكية، سوف تنمي آلية عودة إلى الأصول (كما يتم الاعتقاد بهذه الأصول) وهذه بحدة كبير، ظاهرة بجزء منها لا ثقافية تسعى لوضع استفهام وتقليد وتأويل.

إن هذه القراءة للتوراة وتفسيره، وتطور اللاهوت، سوف تبرر دراسة اللغات القديمة وانماء علم اللغة.

وهذا ما حدث في هايدلبرغ، حيث باع الفرنسي غليوم بوستيل (١٥٠٥ - ١٥٨١) المخطوطات التي حملها معه من رحلته إلى الشرق (١٥٣٦ و ١٥٤٧).

إن التأمل اللاهوتي واللغوي لهذه المرحلة، سوف يضع هذه المخطوطات في الضوء، وسوف يحاول البعض ترجمة التوراة بصيغته البروتستنتية إلى اللغات الشرقية.

**عمانوئيل ترمليوس (١٥١٠ - ١٥٨٠)**، هو يهودي من فيرار، كان قد تكتلك ثم انتمى إلى البروتستنتية، طبع في (١٥٦٩) «قواعد الكلدانية والسريانية»؛ وفي نفس العام، نشر الترجمة السريانية للعهد الجديد مع النص اللاتيني. إذا كان النص اللاتيني للعهد الجديد هو نص الإصلاح الديني، فإن النص السرياني سوف يعيد نصاً لمخطوطة حُمِلت من الشرق بواسطة پوستيل. أمّا التغييرات فيها، فهي تلك المتعلقة بنقاط تختلف عليها بين الكاثوليك والبروتستنت، وهي تتحوّل أحياناً إلى حذف كلمة أو إضافة أخرى.

**جونيس (١٤٤٥ - ١٦٠٢)**، تلميذ لترمليوس (Tremellius) وخلف له، وكان قد اهتم بالعربية بطريقة ظرفية عبر قيامه بأبحاث لأستاذه المكلف بترجمة التوراة العبري من قبل الأمير المنتخب فريدريك الثالث.

وفي (١٥٧٨)، طبع جونيس باللاتينية ترجمة لأعمال القديسين من خلال نص مخطوطة لپوستيل وقد وضع تلميذه **جاكوب كريستمان (١٥٥٤ - ١٦١٣)** على الدرب طالباً إليه كتابة فهرس لمخطوطات پوستيل الشرقية الموجودة في مكتبة هايدلبرغ، وموَّنه قدر استطاعه مما يعرفه من العربية. وفي (١٥٨٢)، طبع كريستمان كتابه (الألفباء العربية) حيث المميزات العربية محفورة على الخشب حسب رسومات المؤلف؛ وفي نهاية الكتاب، يعيد إلى «أبانا» بالعربية حسب قواعد پوستيل العربية لسنة ١٥٣٨.

يجب الإعتراف بأن الاهتمام بالعربية حتى تلك الفترة، كان ظرفياً، ومتعلقاً بالفهارس. وما يعرفه كريستمان منها، كان قد تعلمه حسب پوستيل حيث القواعد ناقصة وبدون نص مصوّت، لقد كان صعباً عليه أن يذهب أبعد من ذلك؛ إضافة إلى ترجمته، وما كان يعتقده تصحيحاً، حيث كان كريستمان يضع مقارنات لا واعية في أكثر الأحيان مع القواعد العبرية؛ وهكذا كان النص يتخثر أحياناً في مزيج نصف - عربي، نصف - عبري.

إن نداء المساعدة إلى **سكاليجر (Scaliger)** لوضع قاموس وقواعد سوف يبقى دون جواب، أضف إلى ذلك بأن الأمراء الألمان لم يبدوا متحمسين لتمويل هذه الدراسات.

لقد تعذب كريستمان من ذلك، وسُمي استاذاً للعربية في آخر حياته، لقد كان لديه وعي، بأن الهوة كبيرة، بين غنى المخطوطات في هايدلبرغ وما كان يُعرف من العربية آنذاك.

في نفس المرحلة، وضمن دائرة هايدلبرغ، كُلف راعي قرية شونو، **روتر سباي** بوضع فهرس للمخطوطات العبرية. وقد وقع هو أيضاً على بعض مخطوطات پوستيل، وأخذ منها ما طبعه كمقطع من أعمال القديسين حيث النص العربي محفور على الخشب حسب طريقة ألفباء كريستمان. وقد أضاف إليها مختارات

مأخوذة حرفياً عن قواعد هوستيل وكل ما استطاع أن يجده من مقاطع لنصوص عربية في مخطوطات أخرى .

إن نظرة سبائي كانت تبشيرية، وطموحه كان طبع توراة بالعربية كان يمكن توزيعه في بلاد الشرق، ولكن المشروع إنتهى بالتوقف . وبالإضافة إلى ذلك لم يكن يُعرف كيف يمكن تنفيذ ذلك مادياً .

صعوبات في التنفيذ لأن الطموحات التبشيرية المبررة أيضاً بالرغبة بتدعيم الإصلاح، أظهرت هذه المواجهة بين الألمان وبين لغة (العربية) لا يعرفون شيئاً، لا عن الشعب ولا عن الدين اللذين يحملانها .

إن هذه الاستفادة المدعاة تحمل على الإستفهام حول وضع اللغة العربية . يجب الإعتراف بأن الإستشراق الألماني لم يكتشف العرب كتاريخ إلّا في القرن التاسع عشر، وكثقافة إلّا في القرن العشرين، وحتى ذلك الحين سوف تبقى اللغة العربية تابعة لقراءة لغة أخرى بالألمانية : العربية، وقراءة دينية ثم لاهوتية للتوراة .

إن القرن السابع عشر لن يكون مخدوماً بشكل أفضل بالنسبة للغة العربية، فقراءتها، كلغة، تبقى تابعة للعلم وللممارسة اللاهوتية .

إن تفسير العالم الذي كان تفسير الإصلاح الديني الألماني يمنع ما يمكن له أن يكون إنفتاحاً على نصوص « كافرة » ؛ وفي كل الأحوال، فإن عدم وجود « كراسي جامعية » للغة العربية ساهم في ذلك .

كان يلزم أيضاً للآهوتي الإصلاحي **جوهان هوتنغر** ( ١٦٢٠ - ١٦٦٧ )، القيام برحلة إلى هولندا، لكي يتمرن على العربية عند **غوليوس** . وسوف يمضي بضعة أعوام في هايدلبرغ حيث سينشر في ( ١٦٥٨ )، فهرساً للمخطوطات الشرقية ؛ لقد قام في نفس الوقت في هايدلبرغ بمحاولة لوضع حياة السيد المسيح بالعربية، مع ترجمة لاتينية تجمع مقاطع من القرآن ومن التوراة .

إن كتابه، ( المكتبة الرباعية الأجزاء )، يجمع ترجمة **الليون الأفريقي** مصحوبة بمجموعة منتخبات من المخطوطات والكتاب العرب . ولكن كل عمله لم يصل إلى التحرر من ثقل التأويل الديني ؛ ولدينا الشعور بأن العربية لم تظهر في عمله إلّا كموضوع في غير مكانه . وكما يقول، فإن كتابه يساهم بتفسير اسم الله في العهد القديم .

وكان العربية بالنسبة لألمانية هي ثمرة الضرورة أو الإثبات عندما لا تكون ثمرة الصدفة .

**هانكلمن**، قبل **ماراشي**، في إيطاليا، نشر في هامبورغ دراسة مقارنة للإسلام والمسيحية ؛ وإذا كنا نجد فيها القرآن بالعربية، فإنه مُلحق بمجموعة طويلة من الملاحظات والمراجع من أجل تفنيده . إن نص هانكلمن ( ١٦٥٠ )، يعطي منفذاً للقرآن للمرة الأولى في ألمانيا وفي طبعة عربية .

وإذا كانت البروتستنتية ترك للعربية مجالاً بسيطاً في حقل اللغويات المقدسة، فإن الكاثوليكية الألمانية لم تهتم بها إطلاقاً.

إن تفسير، ضغط الإصلاح الديني، والمشاكل الداخلية يمكن له أن يُبحث ضمن تاريخ اللاهوت وغوه في القرن السابع عشر.

إن العربية ليس مُعترفاً بها إلا كجهل في الطبقات المتواترة للإصلاح الديني وللعهد القديم، وللتأويل، وللعبرية وللغات السامية المقارنة. ومع وضع « كراسي » في الجامعات الألمانية، فإن كل أستاذ سوف يستفيد من التسمية التي تلائمه، والتي تدخل في إطار عمله. ولكن لا شيء سوف يُدرك من الثقافة أو من الإسلام كدين.

ليس هناك سوى متغيرات هذا الجهل، هذا النقص، ليس بالنسبة إلى صورة مدركة سلفاً ولكن بالنسبة إلى ذاته، والطريقة التي يهزّ بها هذه الصدفية المعتقدية. إذا كان ينسّر بأن التوراة يأخذ مكان أفق ثقافي، ويحد أية معالجة عقلانية، فإن تفسير العهد القديم، وأسبقيّة العبرية يقلّصان، من جهة أخرى، العربية إلى لغة غير أهل للمعالجة، وإن النقص في دراسة اللغات وفي القراءة، لن يفتح الأعين أبداً على ذلك.

إن درجة العلم المتناوبة، والهواية لا ينتظران جواباً لم يكن مثار جدل من أحد. هذا البؤس للإنتاج الإستعراي الألماني هو عائد بالتأكيد إلى الطريق المسدود للمعالجة، ولكن لن يدفع أبداً بمناهج جديدة، إلا تلك الآتية من خارج ألمانيا، ووحدها هذه التأثيرات هي التي ستدفع الدراسات العربية: الفرنسي غليوم پوستيل في القرن السادس عشر، وتأثير الإستشراق الهولندي في القرن السابع عشر والذي سيستمر أيضاً في القرن الثامن عشر مع ولادة كراسي جامعية، ولكن أولئك الذين سيشغلون هذه الكراسي مثل **ميخائيليس** لن يفعلوا شيئاً سوى إكمال إشكالية القرن الماضي. الاستعراي الحقيقي الوحيد الذي سيري القرن الثامن عشر ظهوره، سيمضي عمره مُعذباً وبائساً، ولكنه سيكون الوحيد الذي سيضع تطبيقاً مختلفاً جذرياً للعربية كأدب وتاريخ وسيكون مثل كل الرواد، لا مسموعاً ولا متبوعاً.

**جوهان جاكوب ريسكه** ولد سنة (١٧١٦) في قرية زوربغ الصغيرة في ألمانيا. بين (١٧٢٧ و١٧٣٣)، سوف يتردد على مدرسة الأيتام في مدينة هال. في (١٧٣٣) سوف يتسجّل في جامعة لايبزغ حيث سترسل له عائلته مبلغ (٤٠ تاليرز) في العام، وسيكرسها لشراء الكتب العربية المطبوعة في أوروبا.

في (١٧٣٦)، يمتلك أول أسلحته بترجمته للمقامة السادسة والعشرين للحريري، حسب المخطوطة التي أرسلها إليه عالم من هامبورغ، هو **كريستيان وولف**؛ وسوف يعي أكثر فأكثر، خطورة وضع اللغة العربية في

الجامعات الألمانية، ويقرّر القيام بجولة في هولندا لمراجعة مجموعة **فانون** في جامعة لايدن، والمشهورة في كل أوروبا، كالمجموعة الأكثر كمالاً للمخطوطات العربية .

في ( ١٧٣٨ )، وبعد جمعه للمال اللازم للسفر، يبدأ رحلته، ويمرّ في هامبورغ، حيث يرى وولف الذي يعطيه رسالة تعريف لصديقه دورفيل .

وفي أمستردام حيث التقى به، سيقتراح عليه دورفيل مركز معيد، كان عليه أن يرفضه لولا أنه كان يريد الذهاب إلى لايد ؛ وسوف يقوم بأعمال قراءة إضافية وتصحيح وترجمة لدورفيل، وهذا الأخير الذي كان يحترمه ويعتبره صديقاً، سوف يدفع عنه ديونه للجامعة لايدن في نهاية إقامته .

وسوف يصل إلى لايدن في ( ٦ حزيران/يونيو ١٧٣٨ ) ( ويبقى فيها حتى ١٧٤٦ ) بضعة أيام قبل العطلة الجامعية، ليعلم بأن الجامعة لا تعطي منحاً للطلبة الاجانب .

وسوف يتسجل في دروس شولتنز، ويقوم ببعض الأعمال الصغيرة لكي يعيش وفي موعد العودة إلى الجامعة سوف يستطيع دفع القسط، لكي تتاح له فرصة التعرف على مجموعة فانون .

وبرغبة اكتشاف التاريخ العربي والجغرافية، يدفعه شولتنز نحو دراسة الشعر، حيث سيعمل على جرير، والبحري، ومعلّقات الجاهلية . وينتهي ترجمة لمعلّقة طرفة سنة ( ١٧٤٠ )؛ ولكن هذا الكتاب لن ينشر إلا بعد عامين .

إن المنهجية المتبعة في هذا الكتاب مهمة، فقد طبع ريسكه النص وترجمته اللاتينية مع مجموعة ملاحظات، ودراسة للنص مع مجموعة مراجع، ومدخلاً حول الشعر العربي مصحوباً باستشهادات لمختلف الشعراء ويحتمل لتأريخ النص في محاولة منه للوصول الى نظرة تاريخية شاملة .

وبعد ذلك بقليل، سيظهر الخلاف المميت مع أستاذه، فبالنسبة لشولتنز، لا يمكن للعربية إلا أن تكون لغة إضافية من أجل دراسة العبرية، ولا يمكن للشعر العربي إلا أن يكون مرجعاً لإثباتات وبراهين حول التوراة؛ أمّا ريسكه، فإنه بتاريخه للنصوص في القرن السادس، وبتحليله لها كما هي، كقيمة خاصة، يجي اللغة العربية كلفة مستقلة في التاريخ، لغة تحمل قيماً أخرى غير القيم اللغوية .

وبينما يؤدي منهج شولتنز إلى علم لغة مقارن يسعى للبحث عن جذور مشتركة للغات السامية، فإن ريسكه يثبت بطلان مثل هذه النظرية بالنسبة لدراسة النصوص .

وكدارسٍ عن كتب لأعمال شولتنز، فإنه يظهر بأن ترجمات هذا الأخير مليئة بالأخطاء، وبالمقاربات،

وبضياح كلمات، وإضافات أخرى إلى الترجمة لا توجد في النص الأصلي. ولكن من المؤكد، بأن الخلاف الرئيسي يتأتى من مسألة رفض ريسكه لقراءة لاهوتية للغة العربية.

وقد كُلف آنذاك بوضع فهرس للمخطوطات العربية في جامعة لايدن؛ إن هذه التجربة سوف تسمح له بإلقاء نظرة، حتى ولو جزئية، تشمل كل ميادين الإنتاج العربي.

وفي ذلك الوقت، أفهمه شولتنز بوضوح، بأنه سيفعل كل شيء لمنعه من الحصول على دكتوراه، لأنه يريد لها لابته، راعباً له في أن يخلفه. واقترح عليه مساعدته في دراسة الطب مقابل تركه لهولندا.

وفي أيار/مايو (١٧٤٦)، سُمي ريسكه دكتوراً في الطب وترك لايدن. وفي (١٧٤٧)، كتب ريسكه:

«Prodigmata ad Hadji Chalifae librum menarialem rerum a Muhamedanis gestarum exhibentia introductionem generalem in historiam sic dictam orientalem».

والذي يمثل خلاصة للمؤرخين والجغرافيين العرب، الذين لم يعودوا مُعتبرين كأداة تفسير لثقافة أخرى، بل كممثلين لثقافة خاصة.

وسوف يغيّر ريسكه محط الاهتمام من «الشرقي» إلى «الإسلامي»، الذي حسب رأيه يشمل سلسلة حضارات وشعوب: عرب، إيرانيون، أتراك، منغوليون، تتار، وبربر.

ومن خلال المكتبة الشرقية في أربلو، فإنه يظهر بوضوح بأن بين التعددية التاريخية، الخلط التاريخي، والتاريخ كتأريخ ومصادر؛ ولا مجال للخيار، فالأمر يتعلق بالابتعاد عن السرد بقدر الابتعاد عن التواريخ المبتكرة.

ويدخل في سجل مع شولتنز (في ١٧٤٨)، عندما يُعيد هذا الأخير طبع قواعد ابرنيوس، وعلى رأسها مقطع طويل من التأويل التوراتي والقواعد العبرية (ما الرابط بين التأويل التوراتي والقواعد العبرية؟).

ويطبع شولتنز، القوي بموقعه في جامعة لايدن هجاءً، يهاجم فيه ريسكه حول نقاط لاهوتية، وسيوزع هذا الهجاء في الأوساط العلمية في أوروبا.

ويرى ريسكه أحلامه في أن يصبح أستاذاً، تموت، عندما يطبع ميخائليس (الأستاذ في جامعة غوتنجن) والزميل القديم الذي اعتمد عليه، رسالة شخصية، يعترف فيها ريسكه ببعض الأخطاء.

حتى موته بالسل في (١٧٧٤)، سوف يضاعف ريسكه، الذي أعطى ذاته في سيرته الذاتية اسم «شهيد اللغة العربية»، من توجيه أعماله، نحو وضع الثقافة العربية موضع القيمة، ونحو رفض القراءة اللاهوتية لتاريخ نوعي



لشعوب اللغة العربية، ونحو ضرورة ملكة القواعد وقراءة النص.

إن ريسكه يمثل تغيراً جذرياً في مسيرة الدراسات العربية في ألمانيا، وقد عمل الكثير من أجل تحييد هذه المسيرة على كل الصعد، كما يمثل نقداً جذرياً لهذه الدراسات.

إن إبعاده عن السلك الجامعي، وزوال ثقة الأوساط الجامعية به، لم يسهل عليه أبداً، وبالتأكيد، هذه المهمة أو طباعة كتبه؛ كما منعه خاصةً من تكوين طلاب.

هناك معاصر وزميل لريسكه هو **ميخائيليس** (١٧١٧ - ١٧٩٠)، علّم العربية في غوتنجن وموسكو. ويعود الفضل إليه في إقناعه ملك الدانمرك بتمويل رحلة **كارستن نيبوهر** إلى الجزيرة العربية، والتي طبع الأعمال المتعلقة بها. لقد نشر أيضاً مقطعاً من جغرافية أبي الفداء.

وينبغي علينا عدم نسيان صديق لريسكه، **شورر**، الذي إليه يعود الفضل في فهرسة للمكتب العربية حتى مطلع القرن التاسع عشر، مطبوعة في هال سنة (١٨١١).

ولكن التجديد الفعال والمنتظر سوف يأتي مرة أخرى من فرنسا، مع الألمانين الذين سيقومون برحلة إلى باريس للدراسة في مدرسة اللغات الشرقية لدى **سيلفستر دي ساسي**.

**سيلفستر دي ساسي** (١٧٥٨ - ١٨٣٨)، جنسني (من مذهب جنسينوس) وملكلي، يبسط القواعد العربية، كوضعي (متأثر بالوضعية) متأثر بقواعد بور رويال.

إن طلابه الألمانين يحملون معهم إلى جامعات بلادهم، اهتماماً بالعربية كلغة وأدب، سوف يُحارب من قبل التقليد اللاهوتي البروتستانتي بكل الوسائل.

وعلى هذا المستوى، هناك انغلاق للجامعات الألمانية، وضيق آفاق، في القرن التاسع عشر، سيعاني منها الزواد والمجددون القلائل كثيراً. وليس عرضياً أن تأتي التجديدات حتى في الألسنية المقارنة، فيما بعد، من الخارج: من النمسا ومن سويسرا مثلاً مع دي سويسر.

إن طلاب دي ساسي (**فريتاغ**، **فلوجل**، **هابيخت**، **كوزغوتن**، **دورن**، **اولشوزن**، **ميتشرليتش**، **أبولي**، **برنشتاين**، **شولتنز وفليشر**) سوف يسودون الاستشراق الألماني في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

**جورج فيلهلم فريتاغ** (١٧٨٨ - ١٨٦١)، وُلد في لينبورغ، وبعد تلقيه بعض مبادئ العربية في ألمانيا، قام برحلة إلى باريس، حيث درس عند دي ساسي التركية والفارسية. عُين أستاذاً للغات الشرقية في بون سنة

(١٨١٩)، حيث اشتهر بقدرته على العمل.

وكعاشق لفقه اللغة العربية، كان يعطي طلابه في الوقت ذاته معرفة جيدة للقواعد العربية.

وعندما وجد عمل «غوليوس» غير كاف، وضع كتابه (المعجم العربي - اللاتيني) (هال ١٨٣٠ - ١٨٣٧) في أربعة أجزاء، وهو تطوير جيد لعمل غوليوس، ولكن هذا الكتاب سيجعله مشهوراً في كل أوروبا. متمرساً بالشعر العربي، بنشره لحماسة أبي تمام ولشروحات للتبريزي، فقد أدخل التقطيع الشعري العربي في كتابه: «Darstellung des Arabischen Verskunst». وإليه يعود الفضل في كتاب: «الأمثال العربية»، وهو عبارة عن أمثال عربية مع ترجمتها اللاتينية. أما ج. غ. ل. كوزغوتن (١٧٩٢ - ١٨٠٠)، فقد درس في باريس عند دي ساسي (١٨١٣)، وسُمي، من قبل غوته، أستاذاً للغات الشرقية في يينا. وإليه يعود الفضل في نشر «ألف ليلة وليلة»، و«ابن بطوطة»، و«تاريخ الأمم والملوك» للطبري، وهي نشرات أكملها فلهاوزن، نولدكه، دي يه وآخرون.

وهناك معاصر لفريتاغ، هو فريدريك روكوت، ولد في باثير سنة (١٧٨٨)، وهو أحد الذين ينهلون من منبع الشعر وعشق اللغات، بعد دراسات متينة لفقه اللغة التقليدي في يينا، قام بالرحلة المعهودة إلى إيطاليا؛ وفي طريق عودته صادف في فيينا سنة (١٨١٨)، هامر - بورغستال الذي دفعه إلى الترجمات من العربية ومن الفارسية. في (١٨٢٦)، وبناءً على طلب هذا الأخير، سوف يعلم اللغات الشرقية في إيرلانجن، ثم في جامعة برلين، وفي جامعة يينا، وبعدها سينعزل في كوبيرغ، حيث سيعيش بهدوء، وهو يكتب حتى موته سنة (١٨٦٦).

وعند هذا الحد، لن تكون لروكوت أية علاقة بالاستشراق، سوى استعمال اللغات الشرقية كحافز لشعره، والفكرة التي وضعها لذاته حول غنى المادة الشعرية الشرقية وضرورة استيعابها من الشعر الألماني. وقد ترجم إلى الألمانية جلال الدين الرومي والحريري، عندما ظهرت في (١٨٢٢) ترجمة دي ساسي للمقامات. وسوف يترجم أيضاً مقاطع من القرآن، والشهامة وديوان أبي تمام، الذي سينشره فريتاغ.

هنريخ أولد (١٨٠٣ - ١٨٧٥)، لاهوتي في تكوينه، وسوف يهتم تدريجياً بفقه اللغة. إن أعماله الأولى مكرسة لترجمة العهد القديم، في صراع مدرسة غوتنجن مع مدرسة توبنجن، حول مسائل اللاهوت البروتستنتي والرؤيا.

كان طموحه، وكما كانت النظرية في زمانه، بإعادة اللغات السامية إلى قواعد عقلانية؛ إنها تأملات ظرفية

كما يوحى كتابه، «Grammatica critica Linguae arabicae»، (لايبزغ ١٨٣١ - ١٨٣٣ - جزءان). متمكناً من الفارسية، الأرمنية، التركية، القبطية والسنسكريتية. كان من طلابه نولدكه وفلهاوزن، واللذان أبديا دائماً اعترافهما به.

إذا كان يمكن اتهام عمله بتأملات لا أساس لها، فعلى الأقل يجب الاعتراف بأنه لم تكن لديه إمكانية أخرى لتوسيع أفق اللاهوت إلا باللغات.

كان ذا طبع عنيف، لا يحتمل التناقض، قادر على أحكام لاذعة، سوف يكون له مع ذلك، تأثير كبير على طلابه الذين سيعطيهم تكويناً قوياً في فقه اللغة.

**بول دي لاغارد (١٨٢٧ - ١٨٩٠)**، وهو خلف لأوالد في غوتنجن، دارس جيد، وكان له طبع شبيه بطبع أستاذه.

مع **هنريخ فليشر (١٨٠١ - ١٨٨٨)**، ستعيش لايبزغ ذروة الدراسات العربية في المانيا. وبحكم تكوينه اللاهوتي، سوف يدرس في باريس (١٨٢٤ - ١٨٢٨) اللغات الشرقية (العربية والفارسية والتركية)، مع كوسن دي برسفال ودي ساسي. وهذا الأخير سوف يكون له تأثير فعال عليه، في رفض كل تأمل وكل نظرية، وسيعده لدراسة للأمور العقلانية، وللاستعمال الإيجابي للغة: إن هذا الأمر كان يمكن له ألا يبدو إلا كشعارات تكرارية، ولكن في الواقع، إن هذا الأمر، بالنسبة لواحد كان تكوينه لاهوتياً، هو الوسيلة الوحيدة لقراءة للعالم، لا سابقة لها.

سوف ينشر فليشر كثيراً في حياته، ومنذ (١٨٣١)، قام في كتابه: «Beiträgen zur arabischen Sprachkunde»، بنقد عميق للقواعد العربية، كما وردت عند دي ساسي. ونشر في العام ذاته الجزء المتعلق بالجاهلية في تاريخ أبي الفداء، وترجمة ألف ليلة وليلة في تسعة أجزاء سنة (١٨٤٣)، وتفسير البيضاوي. ووضع فهرساً لمخطوطات المكتبة الوطنية في دريسدن.

إن طريقة تفكيره، والجانب الشكلي في فقه اللغة التقليدي الذي كان موضع إثارة، جعلاه، وبسرعة شديدة، يُمسك بمسائل القواعد واللغة. إن نقده وتصحيحه للمنشورات الاستشرافية المعاصرة - كما عند أماري: *Bibliotheca arabo-sicula*)، ووستنفلد، وفلوجل، تورنبرغ في كتابه «ابن الأثير» - كانا مهمين، ولكنه لم يطبع أبداً خلاصة تستطيع الذهاب أبعد من تكديس التفاصيل. فقد شعر فليشر دوماً بأنه غير معني إلا قليلاً، بتطورات الألسنية؛ واعتبر أن اللغويين العرب كانوا الأساس الوحيد الممكن لكل فقه لغة عربي. وحتى لو اعترف بأهمية القراءة الألسنية للقواعد العربية، من قبل أوالد، فإنه يتمسك بالمواقع التقليدية: دراسة النقاط

المحددة والمسائل الخاصة .

إن سحر فليشر الخاص، وانفتاحه على طلابه، وفنه في السماع، كل هذا سوف يجلب له، في دروسه، عدداً كبيراً من الطلاب: غولدزهر، روزن، كوزوت، مولر، براتوريوس، ساشو، وسوسن .  
وسوف يكون واحداً من مؤسسي الجمعية الألمانية لبلاد الشرق، والتي بدأت مجلتها «Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft» بالصدور منذ العام ( ١٨٤٥ ) . وسوف يساهم فيها بدراسات عدة، وفي نفس الوقت، سوف يكون وراء نشر أعمال عدة، لها علاقة بالعالم العربي .

**فيلهم ألوارت** ( ١٨٣٨ - ١٩٠٩ )، كان يلج، منذ أن كان طالباً، بتواصل بين الثقافة الأوروبية والعربية . وكعاشق للغة، أراد كتابة تاريخ للأدب العربي، وإذا كان هذا التاريخ لم يرَ النور، فعلى الأقل سوف يكلف بوضع فهرس للمخطوطات في جامعة برلين . إن الستة آلاف وأربعمائة وخمسين مخطوطة المكدة هناك، تتعلق بكل فروع المعرفة والثقافة . لقد أخرج منها دليلاً في عشرة أجزاء، دليلاً مفصلاً ودقيقاً، سيستخدمه بروكلمن كأساس في تاريخه للأدب العربي، ودون هذا الدليل، لم يكن هذا التاريخ ممكناً .

وبالإضافة إلى الوصف التقليدي للمخطوطة، فإنه يجمع المعلومات عن الكاتب، والعمل، والأوضاع الاجتماعية، والاقتصادية والسياسية للحقبة . لقد أعطى عشرين سنة من حياته لهذا العمل .

وفي آخر حياته، سوف يعود إلى دراسة الشعر العربي، ناشراً، أقاصيص عربية بدون مؤلف، والعجاج، وشعراء من الجاهلية؛ ومعيداً ترجمات لأبي النواس . إنه سيكون آخر مستعرب رومنيقي في القرن التاسع عشر .

**فرديناند وستنفلد** ( ١٨٠٨ - ١٨٩٩ )، درس في برلين وفي غوتنجن عند أوالد . إن الاستشراق يجب أن يعترف لوستنفلد بنشاط لا يكلّ، كناشر (أكثر من ٥٠ عاماً) في حقل الجغرافيا والتاريخ العربي .

وبشكل متتابع، سوف يكون هناك: ابن خلكان، (سيرة ومؤلفات ٨٦٥ كاتباً) (١٨٣٥ - ١٨٥٠)، جغرافية أبي الفداء (غوتنجن ١٨٣٨)، كتاب المعارف لابن قتيبة، مقاطع من تاريخ مكة للفاكي، معجم البلدان لياقوت الحموي (لايبزغ - ١٨٦٦ - ١٨٧٣) .

إن العناوين لا تخصي، وبعضها لا غنى عنه مثل كتاب: «Genealogische Tapellen der arabischen Stämme und Familien» والذي لم يضاف عليه أوبنهايم أي جديد .

إن رغبته في العمل مباشرة على المراجع العربية، ونقده لفهارس عدة ولمراجع كاملة، أمران يذهلان، نظراً للوقت الذي كان يمكنه تكريسه لهذا العمل، فهو كمدير للمكتبة، كان يشغله هذا العمل كل يوم .

إن تطبيقه، وفكره المنهجي، يفسران أهمية وقيمة المنشورات التي قام بها، حتى لو كانت هذه المنشورات، ينقصها فكر تحليلي، وكانت تفضل حجم النص؛ فعلى الأقل كان عمله مهماً بالنسبة للثغرات المبعثرة في النصوص العربية، والتي كان يسعى لسدّها.

**يوليوس فلهاوزن (١٨٤٤ - ١٩١٨)**، درس اللغات السامية مع أوالده، وسيخلفه في غوتنجن. عمله الأول - نقد أسفار موسى الخمسة - قد هزّ الأوساط الدينية، في تلك الحقبة، برغبته في ألا يرى من خلالها إلا النص وليس موضوع الايمان.

وسوف ينتقل إلى الإسلام، مع اهتمامه فقط بالتاريخ واللغة. إن كتابه «محمد في المدينة» حسب الواقدي والمغازي (برلين ١٨٨٢)، يمهّد لطموحه بمعالجة تاريخ الإسلام معتمداً فقط على النصوص ومخضعاً إياها لنقد شديد: الرغبة الأكيدة والنهائية، في قطع الصلة مع كل ما يمكن أن يكون لديه مدلول ديني. وسيدفعه كتاب كوسان دي برسفال «دراسة حول التاريخ العربي»، في هذا الاتجاه. وسوف يحمل تاريخ الطبري، ابتداءً من سنة (١٨٧٩)، إلى تاريخ الإسلام، ليس فقط مادة كبيرة، ولكن أيضاً المبرر لمنهج عمل، يصل التحليل الأدبي بالنقد التاريخي. وأصبحت كتبه كتاباً تقليدية مع: «دين العرب في الجاهلية» (برلين ١٨٨٧)، «تشرية المدينة في عهد الرسول» ١٨٨٩، «احزاب المعارضة الدينية / السياسية في الإسلام القديم» (برلين ١٩٠١)، و«الدولة العربية وانهارها».

**تيودور نولدكه**، ولد في هاربورغ سنة (١٨٣٦)، حيث كان والده مدير مدرسة هناك. يتحدر من عائلة قديمة أعطت المانيا أساتذة، وموظفين ورجال دين. درس اليونانية واللاتينية على والده، والتركزية في فيينا، والهولندية في لايدن ولكنه سوف يظل في الأساس منظرًا، لم يحصل أبداً على ممارسة فعالة للغات. في (١٨٥٣)، يتسجل في جامعة غوتنجن ليصبح مستشرقاً. حيث يدرس اللغات السامية، والتركزية والنسكربتية. وكتلميذ لأوالده، كان قد طُبِعَ بتربية هذا الأخير، خليطاً واسعاً من الثقافة على أساس لغوي صلب. في (١٨٥٧)، سُمي دكتوراً بكتابه: «De origine et compositione surarum qoraniscarum ipsiusque Qoran».

وسيافر إلى أوروبا بين (١٨٥٦ و ١٨٦٠). وتكون له محطات في فيينا ثم في لايدن، في (١٨٥٧)، حيث ارتبط بصداقة مع دي غوج. في (١٨٥٨)، أرسل بمخطوطة لكتابه «Geschichte des Koran» إلى مسابقة أكاديمية التسجيلات والآداب الجميلة في باريس. حيث حاز على الجائزة مع أماري وشبرنجر. ولقد مهّد هذا الكتاب الطريق، لدراسة علمية للقرآن في أوروبا.

معرفة كبيرة بالموضوع، حكم واضح ومحكم، ومنهج وضعي، هكذا يبدو شعار نولدكه. إن أوالده، الذي عمل آنفاً على القرآن يصطدم بنولدكه، الذي يعيب عليه، إلى حد ما، منهجه التأملي.

لقد عمل كمساعد في مكتبة برلين. وفي (١٨٦٠)، وبفضل سخاء أحد أعمامه، وبعد سجال مع مدير المكتبة، قام برحلة إلى إيطاليا. ولدى عودته، يذهب إلى غوتنجن، كمساعد في المكتبة، وسيهتم بالشعر العربي والتركي. ويحصل على شهادته باللغات السامية سنة (١٨٦١).

وقد سُمي أستاذ كرسي، مكان ويلمن، في كيل. وهناك، سوف يطبق في كتابه «Untersuchungen zur Kritik des Alten Testaments». مناهج التحليل حول العهد القديم التي أثارت ضجة الجامعة، والتي وجد عقلانيته (عقلانية هذه الضجة) غير محبذة وفاترة.

في (١٨٧٢)، عُيّن في ستراسبورغ؛ وفي نفس الوقت، انهالت عليه عروض كل الجامعات الألمانية؛ ولكنه رفض ترك جامعة ستراسبورغ، حيث سيبقى حتى العام (١٩٣٠). أمّا وقد أصبحت المدينة فرنسية، فإن أحداً لن يجرؤ على طرده نظراً لشهرته العالمية.

وسوف يجعل من ستراسبورغ، مركز الاستشراق الأوروبي، في تلك الحقبة. وكتربوي متشدد، فإنه يغضب لأبسط أخطاء القراءة أو الترجمة عند طلابه.

إن كتاباته الأكثر أهمية، في ميدان الدراسات العربية، تحوي بين دراسات أخرى: ترجمة المعلقات الخمس مع شرح ونقد - (المطبوعة في فيينا في ١٨٩٩)؛ وكتاب «Zur Grammatik des classischen Arabisch» (فيينا ١٨٩٦)، وهو أول عمل جدّي في مجاله؛ وكتاب: «Geschichte der perser und Araber zur Zeit der Sassaniden. Aus der Chronik des Tabari und mit ausführlichen Erläuterungen aun Ergänzungen versehen».

وهو الجزء المكرّس للفرس والعرب في تاريخ الطبري والذي سينشر في لايد سنة (١٨٧٩)؛ وكتابه: «Beiträge zur semitischen Sprachwissenschaft». «Neue Beiträge zur semitischen sprachwissenschaft».

الذين يحملان إيضاحات جديدة حول الألسنية السامية؛ وقد طبع في برلين سيرة للرسول محمد، والتي سيُعاد نشرها مرات عديدة.

إن فهرساً كاملاً وضعه بيكر عنه (عن نولدكه)، وهو يوجد في مجلّة «Der Islam» (١٩٣٢)، ويحتوي على أكثر من (٧٠٠) عنوان.

وهو يُعدُّ من بين أفضل المستشرقين، بين زملائه، في أوروبا: **دي غوج** في لايد، **غويدي** في روما، **كولدزهر** في بودابست، **واينيش** في فيينا، **وهوفمان** في كييل .  
وفي ( ١٩٢٠ )، ترك ستراسبورغ، وأقام عند ولده في كالشري، حيث مات بعد احدى عشرة سنة .  
ومع نولده انتهت الحقبة الكلاسيكية والتاريخانية للاستشراق الألماني - هذا وإن تكن منجزاتها ما تزال تتردد أصدائها حتى اليوم في مجال الدراسات الإسلامية .

يَصْدُر قَرِيبًا عَنْ



مَعْهَدُ الْإِنْمَاءِ الْعَرَبِيِّ

تَطَوُّرُ النِّظَرَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ إِلَى أَوْروْبَا

د. خالْد زِيَادَة